

نظر في محاسن حلب وآثارها وتجارها

(لاب بولس جرون البسوي (تابع لا سبق)

٣

لما كان موقع الشهباء في مفرق الطرق التي لم يرَ قدماء الفاتحين بدءاً من اجتيازها استلقت إليها ابصار اصحاب الغزوات سواء زحفوا بجيوشهم من مصر والشام الى بلاد ما بين النهرين او قدموا من بابل ليشنوا الغارات على الشعوب المتاخمة للبحر المتوسط وعليه فان تاريخ حلب منذ امد مديد يشهد بتقلب احوالها وانتقالها من دولة الى دولة حتى صارت الى سلاطين آل عثمان المظفرين

وعرفت حلب في أيام السلوقيين باسم اشتق من لغة المقدونيين وهو « يرية » (Βερύκ) لثبها به سلوقوس نيقاطور اول ملوك الشام من اليونان لما فتحها (سنة ٣١٢ ق م) وجدد بناءها وجعلها مدينة منيعة تقوى على قمع طغيان اعدائه وقد جاء شاهد في الاسفار الكريمة على حصانتها وهو ذكر برج مرتفع كان علوه خمسين ذراعاً به قيل منلاوس خصم يهوذا المكابي (سفر المكابيين الثاني ف ١٣ ع ٤-٥)

ثم صارت حلب بعدئذ بجوزة الرومان في عهد بيبسوس وكانت السيادة في ذلك الوقت لتسرين تر عليها القوافل ذهاباً واياباً واما حلب فكانت لاحقة بتبج متخلقة باخلاقها متدينة بدينها عابدة لاحتسابها ودخلها اليهود قبل المسيح بزمن قليل وكثروا فيها حتى صارت من حواضرهم ولما انبجست عيون التعاليم المسيحية وبرت في جميع اقطار العالم نالت حلب حظها من زلال مياه الدين النصراني وجاء في تقليد الكنيسة اليونانية ان القديس تيمون احد الشامسة السبعة المذكورين في سفر الاعمال بشر الانجيل في حلب ثم انتقل منها الى بصرى في حوران وكانت اسقفية حلب متعلقة بكرسي انطاكية وفيها التأم مجمع من الاساقفة في اواسط القرن الخامس وكانت القديسة ميلانة ام قسطنطين الكبير لما قدمت الى الشرق اجتازت بحلب وتركت فيها آثاراً من جودها وكرمها فانها عثرت كنيسة واسعة البناء محكمة

الاتقان وفي مكانها بُني الجامع الكبير الذي يرف بجوامع ذكرياً. ومن أعمالها المشكورة أنّها جدّدت القناة التي بها تجري المياه من حيلان كما مرّ ثمّ اخذت حلب تنمو وتزداد شأنًا حتّى فتحها أوّلًا كسرى الأوّل ملك المجمع لمّا زحف على انطاكية في عهد يُنطيان ملك الروم. ثمّ عاد القرس وفتحها ثانية في زمان كسرى انوشروان واحرقوها سنة ٦١١ فلم يسلم منها الا القليل بهيئة بطريك انطاكية ميغاس (Mégas) الذي دفع عنها جيش القرس بحسن سياسته ورقته. ثمّ امر انوشروان بترميم اخربة حلب وتحصينها فوجعت الى ما كانت عليه سابقًا من النضارة

قال البلاذري: ولما ظهرت درلة العرب سيّر ابو عبيدة الى حلب جيشًا يقوده عياض بن غنم فصالحه اهلها وطلبوا الامان على انفسهم واولادهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم وقلعتهم فاجاب عياض الى طلبتهم اما تاريخ حلب بعد الاسلام فلا يمكن حصره في مقالة وجيزة كهذه لانه تعدّدت على ملكها الدول الاسلامية متتابة في تديورها حتّى صارت الشهباء من عواصم الشام وغلبت قيسرين ومنبج بارفاقها وسعة تجارتها وكثرة عدتها وعددها. ومنّ أجدوا حلب عظمت ورونقًا ملوك بني حمدان لاسيا سيف الدولة الذي خلد ابو الطيب التنيني بشره ذكر غزواته وحروبه مع الروم. ثمّ توالى عليها ملوك بني سلجوق (من ١٠٩٠ الى ١١١٧ م) ثمّ ملوك بني أرنتق اصحاب ماردن (١١١٧ - ١١٢٦) فلوك الموصل. راستولى عليها مدّة الاساعيليين ثمّ السلاطين من بني أيوب (١١٨٣) فأعلوا منارها ورفعوا شأنها وقيت تحت سلطتهم الى سنة ١٢٥٨ فأخرها اذ ذلك القول (مش ١: ٣٦٧) وقتلوا سكّانها بحدّ السيف ثمّ صارت في يد ملوك مصر السراكية حتّى دخلها تيمورلنك مجيشه سنة ١٤٠٠ فعاش بها وجعل أبنتها ردما. وفي آخر الامر احتلت ريوها جيوش الدولة العلية وخفت فوقها اعلام السلاطين المظّمين من آل عثمان في عهد سليم خان الأوّل سنة ١٥١٧

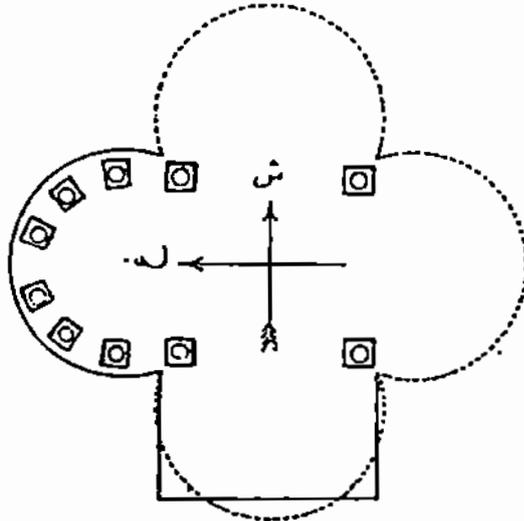
٤

وان سألنا احد تّرى ماذا ابقّت لنا من الآثار كل هذه الدّول التي تعاقبت بالملك على حلب نجيب ان من يستقري عاديّات هذه المدينة يجد فيها ذكرًا لجميع هذه

المالك الغابرة. وقد سبق لنا ذكر كتابها الحثية (ص ١٢) المنبثة باستيلاء الحثيين عليها فلا حاجة الى التكرار

أما اليونان والرومان فقد خلفوا لنا من ولايتهم في حلب بعض الآثار منها بقايا أطلال مائة عند باب انطاكية يزينا نقوش تاتية مُحكَّمة ولعلها كانت سابقاً قوساً اجتاز تحتها بعض الملوك المظفرين ولا مرا. في أنه كان غايةً في الحسن ودقة الصنع. وعند باب النصر حائط فيه حجر كبيرة نُقِرت فيها كتابة يونانية وقد ادخلت في ضمن الحائط مكسوة والحلييون يزعمون ان من مسها زالت عنه تآليل اصابعه ومن الآثار الرومانية بناية رُممت منذ زمن قليل موقعها في المدرسة المعروفة بالحلاوية

وهذه المدرسة عبارة عن بناء مستطيل في صدره قاعة مُتَقَلَّة وفي وسط القاعة عمودان آخزان هيئة قوس بازانه عمودان آخزان وهذا بلا شك من عهد الرومان كان سابقاً على صورة صليب مستدير الاطراف كما ترى في الشكل ولكن لاحقاً بالجامع الكبير المذكور آنفاً وهو قريب منه



اثر روماني في المدرسة الحلاوية بحلب

ونظن ان القديسة هيلانة قد بنته مع الكنيسة الكبرى الروما اليها وجعلته محلاً للصناديق (١). والدليل على ذلك ان المدرسة الحلاوية تُسمى ايضاً بالهيلانية ذكراً لام قسطنطين الملك. والعمد المذكور من الرخام وفي رؤوسها نقوش تمثل ضرباً من النباتات تشبه نقوش قلعة سمان. وهذه العواميد قليلة الارتفاع قد طليت حديثاً بالالوان وبني فرقها قبة

(١) وفي كتابي رومة ابنة قديمة على هذا المثل كان يُسَدُّ فيها المسيحيون

ولم تطلع على غير هذا الترد القليل من آثار اليونان والرومان. أما ماثر الدُول
الاسلامية في حلب فهي عديدة ولو لم تذهب بكثير منها طواري الزمان والحروب
والزلازل لما تأخرت حلب عن غيرها من حواضر الاسلام كالقاهرة وبغداد ودمشق من
حيث فنونها وصنائعها. ولاهل حلب في بنائهم خصوصاً طرائق بديمة احزرت لمدينتهم
شهرة عظيمة ولا يخلو منهم الى يومنا هذا عتمة ماهرون لهم اليد الطولى في
حسن البناء. وفي ابنة الامير بشير في بيت الدين اشغال دقيقة تشهد للحليين بطول
الباع في الزخرفة والتش

ومن آثارهم عدة جوامع ومساجد يرتقي عهدا الى خمسمائة سنة ويُنف أجاد
اصحابها في بنائها وهندامها منها جامع الاطروش في جنوبي القلعة فأنك ترى فيه شغلا
بديما صبر بعضه على آفات الدهر وتولى الحراب على باقيه. ومنها جامع الياذة في شمالي
غربي القلعة وهو مشهور بتقوسه وكتابه. ومنها المارستان الذي على الطريق المؤدية الى
باب قسرين له مدخل يزينه افاريز رنقوش في غاية الجمال. وباب قسرين المذكور
بعدة من بدائع الهندسة عليه خطوط وكتابات رائعة الحسن. واذا اجترت من هذا
الباب وسرت شمالا يمتد الى الشرق بلغت مدافن البلد تجذبها قبورا محكمة العمل
وهناك ايضا مساجد حنة. وكان للمدينة سور حصين بقي اكثره وتهدم بعضه
ولهذا الصور عشرة ابواب ومحيط به خندق عظيم. ولم تزل الى يومنا صورة الاسد وهو
شعار الملك الظاهر يبرس منقوشة في جوانبه كما نُقشت في القلعة

o

بقي علينا ان نذكر شيئا عن تجارة حلب وذلك نقلا عن قوم لهم فيها اليد الطولى
منهم المسيو پوخر (G. Pocher) الذي تكرم علينا بالافادات المنصّة في ذلك
قد سبق لنا القول ان موقع نهباء على بحر القوافل الناقلة لأرفاق آسية من
الشرق الى الغرب ومن سواحل الشام الى البلاد النائية عن البحر. فصارت في القرون
الغابرة جامعة لخيرات اقطار شتى وامصادر قصوى تأتيا السلع الثمينة من المعجم والمند
كاصناف الانسجة والحريز والحجارة الكريمة ولؤلؤ البحرين وهلم جرا. ولم تزل على
هذه الحال من الثروة والنفى حتى تمكّن الاوربيون في اواخر القرن الخامس عشر من
الوصول الى الشرق الاقصى مُبحرين على طريق رأس الرجاء الصالح جنوبي افريقية

فخذت الحركة التجارية في حلب بعض الحمود وعدلت الشركات الاوربية من الانكليز والنمريين والبنادقة والفرنسيين والهولنديين عن السكنى فيها لترويج متجرهم

الا ان الضربة اللاذبة التي دهمت بها تجارة حلب كانت في السنة ١٨٦٨ عند فتح ترعة سويس. وذلك ان حلب بعد ان شرعت السفن الاوربية تنخر عباب البحر دائرة حول افريقية لم تك تفقد سوى قسم من تجارتها مع البلاد القاصية كالصين والمهند والعجم لكنها كانت تنفع برفاق ارمينية وسورية المتوسطة وبلاد ما بين النهرين والعراق وبعض اقطار فارس. وكانت القوافل لم تنفك عن سيرها الخيث فتأتيا بجانب كبير من الانسجة والصوف والعنص والصنع والبذرر. وبها كانت تباع الطنافس الفارسية الغالية الثمن والشالات والسياب المطرزة والطيارة المدبجة بالاقصاب والاقشة الملمة والاخوام المصبوغة. وكثيراً ما كان يبلغ عدد الابل الناقلة لكل هذه المتاجر ٥٠٠٠٠ وبقاً

ولكن ما كاد ينتهي دي لفس من فتح ترعة سويس فجع البحرين المتوسط والقازم (الاحمر) حتى صارت تجارة الموصل وبنداد وسائر العراق تجري على دجلة فشط العرب فبحر العجم وتبلغ بعد بضعة اسابيع الى اقصى بلاد العرب فكسدت بذلك تجارة حلب وهبطت هبوطاً عظيماً

غير ان الله اتاح حلب والاقطار المجاورة لها طرقاً جديدة للعاش وذلك ان كثيراً من القبائل التي كانت من ذي قبل ترتق بالسلب والنهب ركنت الى السكنة بهمة الدولة العلية فناد الامان لقسم كبير من تلك البراري الخصب الواقعة في شمالي شرقي حلب فراجت فيها الفلاحة وزكا الزرع فاستحسن الاوربيون خصوصاً اهل ايطالية هذه الخنطة لعل المعونات كالمكروني وغيره وابتاعوها فضلاً عما سواها. ثم جعل كثير من الاهلين يتنون بتوفير الراشي ورعي القطعان فتوفرت الاصواف وكثر مبيع السمن ونال البعض بذلك ثروة طائلة. ولا شك ان مفازل ضفتي الفرات طيبة التربة فلو اصلحها اصحابها وعالجوها على طريقة الاوربيين الحديثة في الفلاحة ل زاد خصبها زيادة عجيبة وأغنت سكان تلك البلاد. كيف لا وهي التي كانت في أيام ملوك بابل تنل المتين بدل الواحد كما يشهد بذلك هيرودوت المؤرخ

وَمَا يَتَاوَرُ بِهِ أَهْلُ حَلَبٍ فِي زَمَانِنَا عَرَقُ السُّوسِ يَرْجَحُ مِنْهُ التِّجَارَةُ فِي كُلِّ سَنَةٍ
مِلْيُونًا فِي فَرْكٍ وَنُصْفًا يَبِيَعُونَهُ خُصُوصًا لِلأَمِيرِكِيِّينَ - وَكَانَ الأَهْلُونَ مِنْذُ أَعْوَامٍ قَلِيلَةٍ
يَتَلَمَّونَ هَذِهِ العُرُوقَ وَيَعُدُّونَهَا أَقْفًا لِأَرْضِهِمْ فَاضْطَحَتِ اليَوْمَ مِنْ أَكْبَرِ وَسَائِلِ مَعَاشِهِمْ
وَمِنْ ضُرُوبِ الفَلَاتِ الَّتِي يَتَاوَرُ بِهَا الحَلِيبِيُّونَ البَذُورَ بِأَصْنَافِهَا كَالقَمَحِ وَالشَّمِيرِ
وَالسَّمِّ وَالذَّرَّةِ وَالعَدَسِ وَالْحَمَصِ - وَمِنْهَا التَّرَائِيلُ وَالأَفَارِيهِ كالجُوزِ وَاللُّوزِ وَالأَسِيَا
الْفَسْتَقِ المَشهُورِ وَالإتْمَارَ المَجْمُوعَةَ كَالزَّيْبِ وَالتِّينَ وَالأَجَاصَ وَالْمَشْمَشَ - وَأَكْثَرُ هَذِهِ الفَلَاتِ
مِنْ بَيَاتِنِهَا الَّتِي تَبْلُغُ نَحْوَ ٤٠٠ عَدًّا يَسْتَقِيهَا نَهْرُ القَوَيْقِ الَّذِي دَعَاهُ المُوَزَخُ كَرَيْنُوفُونَ
«خَالِسٌ» - وَمِنْ وَجُوهِ مَتَابِرَاتِهَا أَيْضًا الشَّمْعُ وَالجُلُودُ وَالصُّوْعُ كَالكثِيرَاءِ (Adragante)
وَالْحَمُودَةِ (Scammonée) وَالتَّبَعِ وَالقَنْبِ وَالحُرُوعِ - وَمِنْهَا السَّمْنُ وَالزَّيْتُ وَالصَّابُونَ
يَصْطَلَعُونَهُ بِزَيْتِهِمْ فَيَبِيَعُونَهُ الآنَ أَهْلُ كَلِسَ وَعَيْتَابَ وَنَطَاكِيَةَ وَادَلَبَ تَرَاخِمَ
الآنَ حَلَبَ فِي الصَّابُونَ وَلِكُلِّهَا مَصَابِينُ حَسَنَةٌ

وَمِنْ البَضَائِعِ الصَّادِرَةِ مِنْ حَلَبٍ لِلجِهَاتِ نَحْوَ ٢٠,٠٠٠ بَالَةَ مِنَ الصُّوفِ وَمِنْ
١٠,٠٠٠ إِلَى ١٢,٠٠٠ بَالَةَ مِنَ القَطَنِ وَنَحْوَ ٣٠٠٠ بَالَةَ مِنَ العَفْصِ

أَمَّا الأَنْسِجَةُ فَتَقْتَصِرُ عَلَى أَهْلِ حَلَبٍ عَلَى صُنْعِ المَنْسُوجَاتِ الحُرَيْرِيَّةِ وَالفَزَلِيَّةِ لَا
يُحْسِنُونَ غَيْرَهَا وَلَكِنْ هَذِهِ التِّجَارَةُ لَمْ تَعُدْ تَرْجَحُ إِلَّا التَّرْدُ القَلِيلَ مِنْذُ شَرَعَ أَهْلُ عَيْتَابَ
يَنْسُجُونَ عَلَى طَرَاظِهَا وَيَبِيَعُونَ أَنْسِجَتِهِمْ بِشَنْ أُنْجَسَ مِنَ الأَنْسِجَةِ الحَلِيبِيَّةِ - وَكَذَلِكَ
كَدَّتْ سَوَاقِ الصَّبَاغَةِ مِنْذُ وَرَدَتْ حَلَبَ صِبُوعُ الأَلِيزَارِينِ (Alizarine) فَلَمْ يَمُدَّ
رَوَاجَ اللَّيْلِ وَالأَيَّلِينَ

أَمَّا الوَارِدَاتُ الَّتِي تَرْسَلُ إِلَى حَلَبٍ مِنَ البِلَادِ الأَجْنِبِيَّةِ فَكثيرةٌ نَحْصُهَا بِالذِّكْرِ مِنْهَا
السُّكَّرُ وَأَصْنَافُ الحُبوبِ وَالبَذُورُ - كَالبَهَارِ وَالبَنِّ وَمِنْهَا ضُرُوبُ الأَنْسِجَةِ الأوروپِيَّةِ
وَالأَقْمِشَةِ المَتَعَمَلَةِ لِصُنْعِ الأَزْيَاءِ الجَدِيدَةِ

وَكَثِيرٌ مِنَ المَادَنِ كَالرَّصَاصِ وَالحَدِيدِ وَالنَّحَاسِ وَالتَّنَكِّ المَصْفُوحِ وَالرَّجَاجِ وَالأَجْوَاخِ
وَالنَّسِجَةِ لِيُونِ وَسُورِيَّةِ وَإِيطَالِيَّةِ الحُرَيْرِيَّةِ - وَالقَرْمِزِ وَالتَّيْلِ وَهَلْمٌ جَوًّا
وَيَبْتَعِي حَلَبَ وَأَهْلِهَا أَمَلٌ حَسَنٌ فِي المَتَقَبَلِ فَإِذَا مُدَّتِ الأَسْلَاكُ الحَدِيدِيَّةُ بَيْنَهَا
وَبَيْنَ العِرَاقِ وَالمَهِدِّ ثَمَّ أَتَّصَلَتْ بِسَاحِلِ بَحْرِ الشَّامِ سَيَعُودُ إِلَيْهَا مَقَامُهَا القَدِيمُ وَشَأْنُهَا
العَظِيمُ - وَاللهُ تَعَالَى عَلَى أَحْيَاءِ الرَّمَمِ يَرْفَعُ مَنزِلَةَ البِلَادِ إِنْ شَاءَ وَيَهَيِّطُ بِهَا إِلَى قَرِّ

الذلّ اذا لم يُرد لها خيراً
ويزيد املهم غمّ عدد السكّان في حلب في هذه السنوات المنصرمة. وقد وجدنا
في تقويمها (السالنامة) الاخير انّ عدد اهلها يبلغ ١٠٨,٠٨٦ منهم ٧٦,١٢٨ مسلماً
و ٨٠٤٢ روماً كاثوليكياً و ٣٩٧٦ ارمينياً كاثوليكياً و ٢٦١٧ سريانياً و ١٩٩٥
مارونياً و ٣٥٣ لاثينياً و ١٦٢ كلدانياً والباقي يهود و بروتستان واجانب

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لاسبق)

١. تابع دير القلعة

يتنا في ما سبق انّ الاله المبرد في دير القلعة كان اسمه يمل مرقد. فلما استولى
الرومان على الشام ادرجوا هذا الاله الغينيقي في مصف آلهتهم بل اعتبروه كأنه هو
معبودهم الكبير «المشترى» لا يفرقه عنه الا اسمه فشدوا له ذلك الهيكل العظيم
الذي حجّه السوريون والرومان معاً. والكتابات اللاتينية التي فيها ذكر «المشترى يمل
مرقد» كثيرة. وكان اهل بيروت المدعوة في ذلك العصر «المستعمرة جوليا اوغستا
السعيدة» يقيمون فيه انصافاً للملك رومة من جهة ذلك نصب للقيصر ادريانس استخرج
محلماً من تحت الردم منذ سنة بتيف قليل اسعدنا الحظ على قراءة مضمونها كما
يأتي (١):

[Imp.]CAESARI DIVI	[للإمبراطور]التبصر الالهي
[Tr]AIANI PARTHICI FIL(io)	واين [طر]ايانس القرطبي الالهي
DIVI NERV(ae nepoti)	ونيب نرفا
TRAIANO HADRIANO AV(gusto)	لطر ايانس ادريانس اوغستس
PONTIFI(ci) MAX(imo) TRIB(unitia)	المبر الاعظم بملطة مشلي الشعب
POT(estate) - COS III P(ater) P(atriæ)	فصل للمرة الثالثة اب الوطن
COL(onia) IVL(ia) AVG(usta) FEL(ix)	المستعمرة يوليا اوغستا السعيدة
B(erytus)	بيروت

(١) وقد وضنا بين مكثفين ما يقتضى زيادته